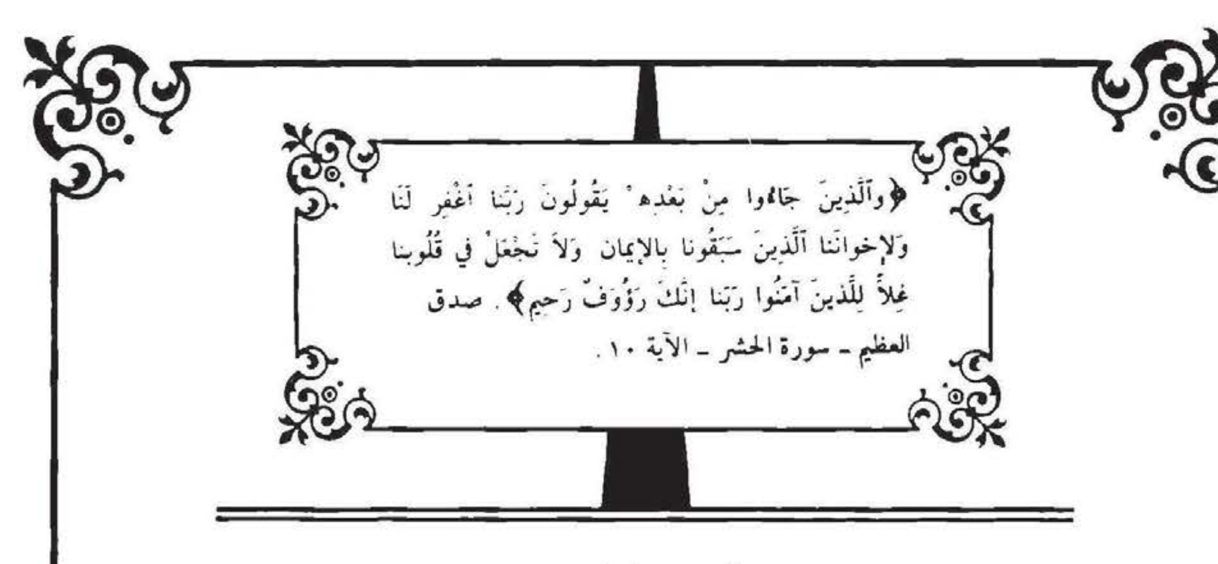

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. صدق العظيم - سورة الحشر - الآية ١٠.

قـــراءات

خلفاء الصدر العباسي

- ١ - أبو العباس السفاح.
- ٢ - أبو جعفر المنصور.
- ٣ - المهدي.
- ٤ - الهادي.
- ٥ - الرشيد.
- ٦ - الأمين.
- ٧ - المأمون.
- ٨ - المعتصم.
- ٩ - الواثق بالله.
- ١٠ - المتوكل على الله.

١ ـ أبو العباس السفاح
١٠٠ ـ ١٣٦ هـ = ٨١٨ ـ ٧٥٣ م.

هو عبدالله بن محمد ـ أبو العباس ـ أول خلفاء العباسيين؛ أوصى له أخوه ابراهيم ابن محمد بالخلافة من بعده؛ بويع له بالخلافة أول ما بويع في مسجد الكوفة؛ وهو الذي أطلق على نفسه اسم (السفاح) عندما أنهى خطابه في المسجد بقوله: « يا أهل الكوفة؛ أنتم أهل محبتنا ومنزل مودّتنا؛ أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك؛ ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم؛ حتى أدركتم زماننا؛ وأتاكم الله بدولتنا؛ فأنتم أسعد الناس بنا؛ وأكرمهم علينا؛ وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم؛ فاستعدوا؛ فأنا السفّاح المبيح والثائر المبير »(★). وقد انصرف بعد مبايعته للقضاء على بني أمية؛ وذكر ان أحد زعماء الدعوة العباسية ـ سديف ـ دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبدالملك، وقد أكرمه، فقال سديف:

لا يغرنـك مـا تـرى مـن رجـال ... إن تحـت الضلـوع داء دويـا
فضع السيـف وارفـع السـوط حتى ... لا تـرى فـوق ظهـرهـا أمـويـا

فقال سليمان: « قتلتني يا شيخ » ودخل السفاح؛ وأخذ سليمان فقتل. ودخل شبل بن عبدالله مولى بني هاشم على عبدالله بن علي وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلاً على الطعام؛ فأقبل عليه شبل؛ فقال:

أصبـح الملـك ثـابـت الآسـاس ... بـالبهـاليـل مـن بني العبـاس
اطلبـوا وتـر هـاشم فشفـوهـا ... بعـد ميـل مـن الزمـان وبـاس
لا تقيلـن عبـد شمس عثـاراً ... واقطعـن كـل رقلـة وغـراس
ذلهـا أظهـر التـودد منهـا ... وبهـا منكـم كحـر المواسـي
ولقـد غـاظني وغـاظ سـوائـي ... قـربهـم مـن نمارق وكـراسي

(★) تاريخ الطبري ٧/٤٢٦ والكامل في التاريخ ٤/٣٣٣ ـ ٣٣٤.

أنـــزلـــوهـــا بحيـــث أنـــزلها اللـــه بـــدار الهـــوان والأتعـــاس
واذكـــروا مصـــرع الحسيـــن وزيـــداً وقتيـــلاً بجانـــب المهـــراس
والقتيـــل الذي بحـــران أضحـــى ثـــاويـــاً بين غـــربـــة وتنـــاسي.

فأمر بهم عبدالله فضربوا بالعمد حتى قتلوا، وبسط عليهم الأنطاع؛ فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً. ونبشت قبور بني أمية بدمشق؛ واستصفى السفاح أموالهم. فلما فرغ منهم قال:

بني أميـــة أفنيـــت جمعكـــم فكيـــف لي منكـــم بـــالأول الماضي.
يطيـــب النفس أن النـــار تجمعكـــم عوضتم مـــن لظـــاهـــا شر معتـــاض.
منيتم لا أقـــال الله عثرتكـــم بليـــث غـــاب إلى الأعـــداء نهاض.
إن كان غيظي لفوت منكـــم فلقـــد منيـــت منكـــم بما ربي بـــه راض.

وتوفي أبو العباس بالأنبار وله ثلاث وثلاثون سنة ومدة ولايته أربع سنين ـ من مبايعته ـ.

٢ ـ أبو جعفر المنصور
٩٥ - ١٥٨هـ = ٧١٣ - ٧٧٤م

ثاني خلفاء بني العباس؛ وصف بأنه كان من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج الى الناس وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان. فإذا لبس ثوبه؛ اربد لونه؛ واحمرّت عيناه؛ وقال يوماً لأهله وخاصته: إذا رأيتني قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي؛ فلا يدنون مني منكم أحد مخافة ان أغره بشيء. ولم ير في دار المنصور لهو ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث. **وقال المنصور: «ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم: هم أركان الدولة؛ ولا يصلح الملك إلاّ بهم. أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم. والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي. والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية؛ فإني عن ظلمها غني. ثم عض على اصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة: آه؛ آه؛ قيل ما هو يا أمير المؤمنين؟. قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة».**

كان شغل المنصور في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف؛ وأمن السبيل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهديهم. فإذا صلى العصر؛ جلس لأهل بيته. فإذا صلى العشاء الآخرة؛ جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والآفاق؛ وشاور سماره. فإذا مضى ثلث الليل؛ قام الى فراشه وانصرف سماره؛ وإذا مضى الثلث الثاني قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر. ثم يخرج فيصلي بالناس؛ ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

وأوصى المنصور ابنه المهدي بقوله: «يا بني! لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه؛ فإن فكر العاقل مرآته تريه حسنه وسيئه. يا بني! لا يصلح السلطان إلاّ بالتقوى؛ ولا تصلح رعيته إلاّ بالطاعة؛ ولا تعمر البلاد بمثل العدل؛ وأقدر

الناس على العفو أقدرهم على العقوبة؛ وأعجز الناس من ظلم من هو دونه. واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختباره. يا أبا عبدالله! لا تجلس مجلساً إلاّ ومعك من أهل العلم من يحدثك. ومن أحب أن يحمد أحسن السيرة؛ ومن أبغض الحمد أساءها؛ وما أبغض الحمد أحد إلاّ استذم؛ وما استذم إلا كره. يا أبا عبدالله! ليس العاقل الذي يحتال للأمر الذي غشيه، بل العاقل الذي يحتال للأمر حتى لا يقع فيه».

وخطب المنصور يوماً؛ فقال: «الحمدلله؛ أحمده وأستعينه؛ وأؤمن به وأتوكل عليه؛ وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له» فاعترضه إنسان فقال: «أيها الإنسان أذكرك من ذكرت به». فقطع الخطبة ثم قال: «سمعاً؛ سمعاً؛ لمن حفظ عن الله؛ وأعوذ بالله أن أكون جبّاراً عنيداً؛ أو تأخذني العزة بالاثم؛ لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين. وأنت أيها القائل؛ فوالله ما أردت بهذا القول الله؛ ولكنك أردت ان يقال: قام فقال فعوقب فصبر. وأهون بها ويلك؛ لقد هممت؛ واغتنمها إذ عفوت؛ وإياك وإياكم معاشر المسلمين أختها، فإن الحكمة علينا نزلت؛ ومن عندنا فصلت؛ فردّوا الأمر إلى أهله توردوه موارده وتصدروه مصادره» ثم عاد إلى خطبته كأنما يقرؤها.

وكتب رجل إلى المنصور يشكو بعض عمّاله؛ فوقع إلى العامل في الرقعة: «إن آثرت العدل صحبتك السلامة؛ وإن آثـرت الجور فما أقربك من الندامة؛ فأنصف هذا المتظلم من الظلامة». وكتب صاحب أرمينية إلى المنصور يخبره أن الجند قد شغبوا عليه ونهبوا ما في بيت المال؛ فوقع المنصور في كتابه: «اعتزل عملنا مذموماً مدحوراً. فلو عقلت لم يشغبوا؛ ولو قويت لم ينهبوا».

قال يزيد بن عمر بن هبيرة: «ما رأيت رجلاً قط في حرب ولا سمعت به في سلم أنكر ولا أمكر ولا أشد تيقظاً من المنصور؛ لقد حصرني تسعة أشهر ومعي فرسان العرب؛ فجهدنا بكل الجهد أن ننال من عسكره شيئاً فما تهيأ؛ ولقد حصرني وما في رأسي شعرة بيضاء؛ فخرجت إليه وما في رأسي شعرة سوداء» قيل: وأرسل ابن هبيرة

الى المنصور وهو محاصره يدعوه الى المبارزة؛ فكتب إليه: « إنك متعد طورك؛ جار في عنان غيك؛ يعدك الله ما هو مصدقه؛ ويمنيك الشيطان ما هو مكذبه؛ ويقرب ماالله مباعده؛ فرويداً يتم الكتاب أجله، وقد ضربت مثلي ومثلك: بلغني أن أسداً لقي خنزيراً، فقال له الخنزير: قاتلني. فقال الأسد: إنما أنت خنزير ولست بكفء لي ولا نظير؛ ومتى قاتلتك فقتلتك قيل لي: قتل خنزيراً، فلا أعتقد فخراً ولا ذكراً؛ وإن نالني منك شيء كان سبة علي. فقال الخنزير: إن لم تفعل أعلمت السباع أنك نكلت عني. فقال الأسد: احتمال عار كذبك عليَّ أيسر من لطخ شرابي بدمك».

أتي المنصور برجل من بني أمية، وسأله: «من أين أتي بنو أمية؟» قال: «من تضييع الأخبار» فأراد المنصور ان يستعين في الأخبار بأهل بيته فقال: أضع منهم. فاستعان بمواليه (*).

كان أول عمل قام به المنصور عندما ولي إمرة المسلمين، هو قتله لأبي مسلم الخراساني؛ وكان المنصور يجد في هذا الرجل خطراً على الدولة العباسية؛ وعلى سلطة أمير المؤمنين. فمن هو هذا الرجل؟ كان الإمام محمد بن علي بن عبدالله بن عباس؛ قد نشر دعاته في خراسان؛ وأوصى بالإمامة من بعده الى ابنه إبراهيم بن محمد. وقد عرف ابراهيم (أبو مسلم) الذي كان من سواد الكوفة ـ وكان قهرمانا لادريس بن معقل العيجلي ـ. وقدر فيه إمكاناته وكفاءته، وزوجه ابنة أبي النجم وساق عنه صداقها؛ ووجهه الى خراسان؛ غير أن النقباء ـ الدعاة ـ لم يعترفوا به لصغر سنّه؛ إلاّ أنهم اضطروا للقبول به بعد أن أوصاهم الإمام ابراهيم بن محمد بقبوله والاعتراف به. وقيل إن أبا مسلم قد حمل وصية الإمام إبراهيم؛ وجاء فيها:

« يا عبدالرحمن! إنك رجل منا أهل البيت؛ فاحفظ عني وصيتي: انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم. وحل بين أظهرهم؛ فإن الله لا يتم هذا الأمر إلاّ بهم؛ وانظر هذا الحي من ربيعة؛ فاتهمهم في أمرهم. وانظر هذا الحي من مضر؛ فإنهم العدو القريب

(*). تاريخ الطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير ـ سيرة المنصور ـ أحداث سنة ثمان وخمسين ومائة.

الدار. **فاقتل من شككت في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء. وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل؛ فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله»**. ومضى أبو مسلم متذرعاً بهذه الوصية، وأظهر دهاء كبيراً في توجيه العرب لقتل بعضهم بعضاً في خراسان؛ فيما تفرغ هو لتصفيتهم ـ **حتى قتل في دولته وحروبه صبراً ستمائة ألف عربي** ـ. وكان هناك من حذر ربيعة واليمنيين من الاقتتال؛ وأن يوجهوا جهدهم لحرب أبي مسلم فلم ينتفعوا من التحذير، ومن ذلك ما قاله نصر بن سيار والي الأمويين على خراسان:

أبلـغ ربيعـة في مــرو وفي يمن ... أن اغضبوا قبل ألا ينفع الغضـب.
ما بـالكـم تنشبـون الحرب بينكـم ... كأن أهل الحجى عن رأيكم غُيـبُ.
وتتركون عـدواً قـد أحـاط بكـم ... ممن تأشـب لا ديـن ولا حَسَـبُ.
لا عرب مثلكم في الناس تعرفهم ... ولا صريح موال إن همو نسبوا.
من كان يسألني عن أهل دينهـم ... فإن دينهـم أن تهلـك العـرب.
قوم يقولون قولاً ما سمعت بـه ... عن النبي ولا جاءت به الكتـب.

وعندما انتصرت الدعوة العباسية؛ وجاء ابو العباس الى الكوفة ليأخذ البيعة من أهلها؛ وكان قد قتل الإمام ابراهيم بن محمد ـ قتله الامويون بالسجن والسم ـ أراد أبو سلمة الخلال ـ كبير دعاة العباسيين صرف الخلافة عن العباسيين وإعطاءها إلى الهاشميين أو الطالبيين؛ ولم يكن أبو العباس السفاح أو أخوه أبو جعفر المنصور يجهلان نوايا هؤلاء الدعاة الخراسانيين من ضرب العرب بعضهم ببعض. وأراد ابو العباس قتل أبي سلمة الخلال. غير أن ـ داود بن علي ـ نصح أبا العباس بألا يفعل؛ وأن يكتب بذلك إلى أبي مسلم. ففعل. وقام أبو مسلم بقتل أبي سلمة الخلال. غير أن أبا جعفر الذي كان يراقب الموقف عن كثب ـ عاد وقال لأخيه السفاح: «يا أمير المؤمنين! أطعني واقتل أبا مسلم. فوالله إن في رأسه لغدرة» وأجاب السفاح: «يا أخي، قد عرفت بلاءه وما كان منه». فقال أبو جعفر: «يا أمير المؤمنين! إنما كان بدولتنا. وأخاف والله ان لم تتغده اليوم يتعشاك غداً».

لقد أدرك أبو مسلم الخراساني ما يضمره له أبو جعفر المنصور؛ فأظهر استخفافه به في بداية الأمر؛ كما أظهر استهانة به عندما حجّا معاً سنة ست وثلاثين ومائة؛ إذ كان أبو مسلم يطمع في أن يسند إليه أبو العباس السفاح إمارة الحج؛ إلاّ أن أبا العباس طلب إلى أخيه التوجه الى الحج وأخذ إمارة الحج، فقال أبو مسلم: «أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا! واضطغنها عليه». ولهذا فعندما توفي أبو العباس كتب أبو مسلم الى أبي جعفر يعزيه بوفاة أخيه دون ان يهنئه بالخلافة «وكان أبو مسلم إذا أتاه كتاب من أمير المؤمنين يقرؤه ثم يلوي شدقه؛ ويرمي بالكتاب الى أبي نصر فيقرؤه ويضحكان استهزاء». وأراد ابو جعفر ان ينتزعه من مركز قوته. فكتب له: «أن قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان. فوجه الى مصر من أحببت؛ وأقم بالشأم فتكون بقرب أمير المؤمنين. فإن أحب لقاءك أتيته من قريب» فلما أتاه الكتاب غضب؛ وقال: «هو يوليني الشأم ومصر؛ وخراسان لي». واعتزم المضي الى خراسان: إلاّ أن المنصور استطاع بدهائه أن يدخل الطمأنينة الى قلب أبو مسلم، ثم إستدعاه إليه في بغداد؛ وخرجت بغداد لاستقبال أبي مسلم - بإيعاز من المنصور -. واستقبله المنصور كأحسن ما يكون الاستقبال. ثم قال له: «انصرف يا عبدالرحمن؛ فأرح نفسك؛ وادخل الحمام فإن للسفر قشفاً - ثم اغد علي» فانصرف أبو مسلم، وانصرف الناس. وأمضى ليلة أخرى لم يعرف النوم فيها إلى عينيه سبيلاً. حتى إذا ما كان الصباح أرسل إلى أبي مسلم من يستعجله القدوم لمقابلة أمير المؤمنين؛ لأمر عاجل؛ وجاء أبو مسلم. فلما انفرد به المنصور؛ أخذ يعاتبه على ما كان قد صدر عنه من مواقف. فقال له أبو مسلم: «ليس يقال هذا لي بعد بلائي وما كان مني» فقال له المنصور: «يابن الخبيثة! والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت ناحيتها؛ إنما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا؛ ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً! ألست الكاتب إلي تبدأ بنفسك؛ والكاتب إلي تخطب أمينة بنت علي؛ وتزعم أنك ابنُ سليط بن عبدالله بن عباس! لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً». فأخذ أبو مسلم بيد المنصور يقبلها ويعتذر إليه - وصفق المنصور بيديه؛ وخرج من وراء الستار أربعة رجال وسيوفهم تلتمع في أيديهم، وضربه أولهم ضربة خفيفة فصاح المنصور بالرجال: «اضربوا قطع الله أيديكم». وصرخ أبو مسلم:

« يا أمير المؤمنين! استبقني لعدوك» فرد عليه المنصور : « لا أبقاني الله إذاً ! وأي عدو لي أعدى منك ». واعتورته السيوف؛ حتى مات؛ وأدرج في بساط . ثم دعا أبو جعفر إليه (جعفر بن حنظلة) فدخل عليه؛ فقال: « ما تقول في أبي مسلم؟ » فقال: « يا أمير المؤمنين! إن كنت أخذت شعرة من رأسه؛ فاقتل ثم اقتل ثم اقتل ». فأجابه المنصور : « وفقك الله ! » ثم أمره بالقيام والنظر إلى أبي مسلم مقتولاً . فقال: **« يا أمير المؤمنين! عُدَّ من هذا اليوم لخلافتك»** . ثم إن المنصور همّ بقتل أبي إسحاق صاحب حرس أبي مسلم. وقتل أبي نصر مالك ـ وكان على شرط أبي مسلم ـ فكلّمه أبو الجهم؛ فقال: « يا أمير المؤمنين؛ جنده جندك؛ أمرتهم بطاعته فأطاعوه». ودعا المنصور بأبي إسحاق؛ فلما دخل عليه ولم ير أبا مسلم. قال له أبو جعفر : « أنت المتابع لعدو الله أبي مسلم على ما كان أجمع ». فصمت وجعل يلتفت يميناً وشمالاً تخوفاً من أبي مسلم. فقال له المنصور : « تكلّم بما أردت؛ فقد قتل الله الفاسق ». وأمر بإخراجه إليه مقطعاً. فلما رآه أبو إسحاق خر ساجداً؛ فأطال السجود. فقال له المنصور : « ارفع رأسك وتكلّم! ». فرفع رأسه وقال: « الحمدلله الذي آمنني بك اليوم. والله ما أمنته يوماً منذ صحبته؛ وما جئته يوماً إلاّ وقد أوصيت وتكفنت وتحنطت ». ثم رفع ثيابه الظاهرة؛ فإذا تحتها ثياب كتان جدد ، وقد تحنّط. فلما رأى أبو جعفر حاله رحمه وقال له: « استقبل طاعة خليفتك؛ واحمدالله الذي أراحك من الفاسق. وفرق عني هذه الجماعة ـ يقصد حرس أبي مسلم وجماعته » (*) .

مات أبو مسلم. وبدأ المنصور خلافته التي دامت اثنتين وعشرين سنة.

(*) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ لابن الأثير ـ أحداث سنوات ١٢٨ و ١٣٢ و ١٥٨ .

٢ ـ المهدي ـ محمد أبو عبد الله بن المنصور
١٢٦ ـ ١٦٩ هـ = ٧٤٣ ـ ٧٨٥ م.

ثالث خلفاء بني العباس؛ ولي الخلافة يوم وفاة أبيه المنصور؛ فمضى لإجراء الإصلاحات الضرورية. وأمر ببناء القصور بطريق مكّة، أوسع من القصور التي بناها السفاح من القادسية الى (زبالة ـ بضم أوله) وأمر باتخاذ المصانع في كل منها؛ وبتجديد الأميال والبرك وبحفر الركايا؛ وأمر بالزيادة في مسجد البصرة وتقصير المنابر في البلاد وجعلها بمقدار منبر النبي ﷺ. وأمر المهدي يعقوب بن داود بتوجيه الأمناء في جميع الآفاق، ففعل، فكان لا ينفذ المهدي كتاباً إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب الى أمينة بانفاذ ذلك. ووضع المهدي ديوان الأزمة ـ أي أن يكون لكل ديوان زمام وهو رجل يضبطه ولم يكن لبني أمية ذلك بل كانت الدواوين قبل ذلك مختلطة؛ مما كان يحمل على الخطأ ـ. كما أجرى المهدي الأرزاق على المجذّمين وأهل السجون في جميع الآفاق. وكان المهدي إذا جلس للمظالم قال: «أدخلوا علي القضاة؛ فلو لم يكن ردي المظالم إلاّ للحياء منهم لكفى». وركب المهدي يوماً مركباً؛ واهتاج البحر وهبت ريح شديدة حتى ظنّ الركب أنهم في سبيلهم إلى المحشر. فوضع المهدي خدّه على الأرض ـ تضرعاً لله ـ وابتهل: **«اللهم احفظ محمداً في أمته؛ اللهم لا تشمّت بنا أعداءنا من الأمم؛ اللهم إن كنت أخذت هذا العالم بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك»**. ولم تمض إلاّ فترة يسيرة حتى انكشفت الريح. خرج المهدي يطوف ليلاً؛ فسمع أعرابية تقول: «قومي مقترون؛ نبتْ عنهم العيون؛ وفدحتهم الديون؛ وعضتهم السنون؛ وبادت رجالهم؛ وذهبت أموالهم؛ وكثرت عيالهم؛ أبناء سبيل وأنضاء طريق. وصية الله ووصية الرسول، فهل من آمر لي بخير كلأه، الله في سفره وخلفه في أهله؟» فأمر لها بخمسمائة درهم. وقال المهدي: «ما توسل أحد إلي بوسيلة هي أقرب من تذكيري يداً سلفت مني إليه أتبعها أختها، وأحسن ربها. **فإن**

منع الأواخر يقطع شكر الأوائل».

ماتت الياقوتة بنت المهدي؛ وكان معجباً بها لا يطيق الصبر عنها، حتى إنه كان يلبسها لبسة الغلمان ويركبها معه؛ فلما ماتت وجد عليها. وأمر أن لا يحجب عنه أحد. فدخل الناس يعزونه؛ وأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أبلغ ولا أوجز من تعزية (شبيب بن شيبة) فإنه قال: «يا أمير المؤمنين! **ما عند الله مما عندك خير لها منك؛ وثواب الله خير لك منها. وأنا أسأل الله أن لا يحزنك ولا يفتنك وأن يعطيك على ما رزئت أجراً؛ ويعقبك صبراً؛ ولا يجهد لك بلاء؛ ولا ينزع منك نعمة؛ وأحق ما صبر عليه ما لا سبيل إلى ردّه»** (*). مات المهدي؛ وكانت مدة خلافته عشر سنين وشهراً. وتوفي وهو ابن ثلاث وأربعين سنة. وصلى عليه ابنه الرشيد. واختلفت الروايات في سبب موته. فمن قائل إنه مات مسموماً ـ سمته جارية له على غير إرادة منها. ومن قائل إنه كان في رحلة صيد فدخل خربة، فدق الباب ظهره فمات من ساعته.

(*) تاريخ الطبري والكامل في التاريخ ـ احداث سنة تسع وستين ومائة ـ وما قبلها.

٤ ـ الهادي ـ موسى بن المهدي محمد بن المنصور
١٤٦ ـ ١٧٠ هـ = ٧٦٣ ـ ٧٨٦ م.

رابع خلفاء بني العباس. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه المهدي؛ وسار على نهج أبيه؛ وأخذ بوصاياه. وأولها حربه ضد الزندقة والزنادقة. وكان المهدي قد اشتد في عهد خلافته بطلب الزنادقة، وقتل منهم جماعة؛ منهم علي بن يقطين؛ وقتل أيضاً يعقوب بن الفضل بن عبدالرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحرث بن عبدالمطلب. وكان سبب قتله أنه أتى به المهدي؛ فأقر بالزندقة، فقال: «لو كان ما تقول حقاً لكنت حقيقاً أن لا تتعصب لمحمد؛ ولولا محمد ما كنت. أما والله لولا أني جعلت على نفسي أن لا أقتل هاشمياً لقتلتك». ثم قال للهادي: «أقسمت عليك إن وليت هذا الأمر لتقتلنه». ثم حبسه؛ فلما مات المهدي عمل الهادي على قتله. وكذلك أيضاً كان المهدي قد عهد إلى الهادي بقتل ولد لداود بن علي بن عبدالله بن عباس؛ كان زنديقاً فمات في الحبس قبل الهادي. وكان المهدي قد قال للهادي يوماً ـ وقد قدم إليه زنديق فقتله وأمر بصلبه ـ: **«يا بني! إذا صار الأمر إليك فتجرد لهذه العصابة ـ يعني أصحاب ماني والمانوية ـ فإنها تدعو الناس الى ظاهر حسن؛ كاجتناب الفواحش؛ والزهد في الدنيا والعمل للآخرة؛ ثم تخرجها من هذا إلى تحريم اللحوم؛ ومس الماء الطهور؛ وترك قتل الهوام تحرجاً. ثم تخرجها إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة. ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لينقذوهم من ضلالة الظلمة إلى هداية النور. فارفع فيهم الخشب وجرد فيهم السيف؛ وتقرب بأمرهم إلى الله؛ فإني رأيت جدي العباس رضي الله عنه في المنام وقد قلدني سيفين لقتل أصحاب الاثنين». فلما** ولي الهادي قال: «لأقتلن هذه الفرقة».

لما ولي الهادي الخلافة؛ كانت أمه (الخيزران) تستبد بالأمور دونه؛ وتسلك به

مسلك المهدي؛ حتى مضى أربعة أشهر؛ فانثال الناس الى بابها. وكانت المواكب تغدو وتروح إلى بابها؛ فكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً؛ فقالت: «لا بد من إجابتي إليه فإنني قد ضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك». فغضب الهادي وقال: «ويل على ابن الفاعلة. قد علمت أنه صاحبها؛ والله لا قضيتها لك». قالت: «إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً» قال: «لا أبالي والله». فغضبت وقامت مغضبة، فقال:

«مكانك! والله أنا نفي من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي وخاصتي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك وإياك! لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي». فانصرفت وهي لا تعقل فلم تنطق عنده بعدها. ثم إنه قال لأصحابه: «أيما خير أنا أم أنتم؛ وأمي أم امهاتكم؟». قالوا: «بل أنت وأمك خير» قال: «فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر أمه؛ فيقال: فعلت أم فلان وصنعت؟» قالوا: «لا نحب ذلك». قال: «فما بالكم تأتون أمي فتتحدثون بحديثها؟» فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها.

كان المهدي قد رأى فيما يراه النائم أنه دفع إلى موسى قضيباً وإلى هرون قضيباً؛ فأورق من قضيب موسى أعلاه؛ وأورق قضيب هرون من أوله إلى آخره. فقال لهما إنهما يملكان معاً؛ فأما موسى فتقل أيامه؛ وأما هرون فيبلغ آخر ما عاش خليفة؛ وتكون أيامه أحسن أيام ودهره أحسن دهر. ولما ولي موسى الهادي الخلافة أراد ان يصرف الخلافة عن أخيه هرون وأخذ البيعة لابنه الصغير - جعفر - وجلس في مجلسه وعنده نفر من قواده؛ وعنده الرشيد؛ وهو ينظر إليه؛ ثم قال له: **يا هرون! كأني بك وأنت تحدث نفسك بتمام الرؤيا؛ ودون ذلك خرط القتاد** فقال له هرون: **«يا موسى! إنك إن تجبّرت وضعت؛ وإن تواضعت رفعت؛ وإن ظلمت قتلت؛ وإن أنصفت سلمت. وإني لأرجو أن يفضي الأمر إلي؛ فأنصف من ظلمت؛ وأصل من قطعت؛ وأجعل أولادك أعلى من أولادي؛ وأزوجهم بناتي؛ وأبلغ ما تحب من حق الإمام المهدي»**. فقال له الهادي: «ذلك الظن بك؛ ادن مني» فدنا

منه فقبل يده. ثم أراد العود إلى مكانه. فقال له الهادي: «لا والشيخ الجليل والملك النبيل ـ أعني المنصور ـ لا جلست إلاّ معي». فأجلسه في صدر مجلسه. ثم أمر أن يحمل إليه ألف ألف دينار. وأن يحمل إليه نصف الخراج. غير أن الهادي عاد ـ بإلحاح من قواده ـ لمحاولة نقل الخلافة من أخيه الرشيد الى ابنه ـ جعفر ـ وعارضه في ذلك (يحي بن خالد بن برمك) فأحضره، فقال يحي: «يا أمير المؤمنين! إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم؛ وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده؛ كان ذلك أوكد للبيعة» قال: «صدقت» وسكت عنه. فعاد اولئك الذين بايعوه من القواد والشيعة؛ فحملوه على معاودة الرشيد بالخلع. فأحضر يحي وحبسه. فكتب إليه أن عندي نصيحة؛ فأحضره؛ فقال له يحي: «يا أمير المؤمنين! أرأيت إن كان الأمر الذي لا تبلغه؛ ونسأل الله أن يعـدمنا قبله ـ يعني موت الهادي ـ أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحنث أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم؟» وأجاب الهادي: «ما أظن ذلك!» فقال يحي: «يا أمير المؤمنين! أفتأمن أن يسمو إليها أكابر أهلك مثل فلان؛ ويطمع فيها غيرهم؛ فتخرج من ولد أبيك؟ والله لو أن هذا الأمر لم يعقده المهدي لأخيك لقد كان ينبغي ان تعقده أنت. فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي له؟ ولكني أرى ان تقر الأمر على حاله. فإذا بلغ جعفر أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه» فقبل قوله. وقال له: «لقد نبهتني على أمر لم أتنبه له». وأطلقه. ثم عاد فسجنه بتحريض القواد والشيعة. وخرج الهادي الى حديثة الموصل، فمرض بها. واشتد مرضه. وقيل إن (الخيزران) وضعت جواريها عليه فقتلته بالغم والجلوس على وجهه فمات. وقالت الخيزران ـ وكانت قد أخذت للعلم عن الاوزاعي ـ اليوم يموت خليفة ويملك خليفة ويولد خليفة. فمات الهادي وملك الرشيد وولد المأمون. ومات الهادي وعمره ستاً وعشرين سنة ومدة خلافته أربعة عشر شهراً. وصلى عليه الرشيد؛ ودفن في عيساباذ.

(★) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ ـ احداث سنة سبعين ومائة.

٥ ـ هرون الرشيد بن محمد المهدي
١٤٦ ـ ١٩٣ هـ = ٧٦٣ ـ ٨٠٨ م.

الرشيد هو خامس خلفاء بني العباس؛ تفاءل المسلمون بولايته فقال ابراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة   فلما ولي هرون أشرق نورها
بيمن أمين الله هرون ذي الندى   فهرون واليها ويحيي وزيرها

وكان أول ما عمله الرشيد هو أنه حجّ وغزا في سنة واحدة. وفي ذلك قال داود ابن رزين:

بهارون لاح النور في كل بلدة   وقام به في عدل سيرته النهج
إمام بذات الله أصبح شغله   وأكثر ما يعني به الغزو والحج
تضيق عيون الناس عن نور وجهه   إذا ما بدا للناس منظره البلج
وان أمين الله هارون ذا الندى   ينيل الذي يرجوه أضعاف ما يرجو

ومضى الرشيد في سيرته هذه؛ فكان يحج عاماً ويغزو عاماً؛ وكان يصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا - إلا من مرض - وكان يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته. وكان إذا حجّ؛ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم. فإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الطاهرة. وكان يطلب العمل بآثار المنصور إلاّ في بذل المال، فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال. وكان لا يضيع عنده إحسان محسن؛ ولا يؤخر ذلك. وكان يحب الشعر والشعراء؛ ويميل الى أهل الأدب والفقه؛ ويكره المراء في الدين. وكان يحب المديح، ويجزل العطاء عليه إن كان صادقاً، وقد مدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة أعطاه مقابلها خمسة آلاف دينار؛ وخلعة؛ وعشرة من الرقيق الرومي؛ وبرذوناً من خاص مركبه. وكان مما تضمنته تلك القصيدة:

وسدّت بهرون الثغور فأحكمت — به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقوداً بنصر لواؤه — له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية — على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر
لقد ترك الصفصاف هارون صفصفاً — كأن لم يك فيه من الناس حاضر
اناخ على الصفصاف حتى استباحه — فكابره فيها ألج مكابر
إلى وجهه تسمو العيون وما سمت — إلى مثل هارون العيون النواظر (*)

وكان البرامكة قد شكلوا مركز قوة له خطره على الدولة «فكان الرشيد لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلاّ قيل هذا لجعفر، وقد أغدق البرامكة العطاءات للشعراء والعلماء لاستجلاب الناس واجتذابهم اليهم» وابتنى جعفر داراً أنفق عليها عشرين ألف ألف درهم فرفع ذلك الى الرشيد؛ وقيل له: هذه غرامته على دار؛ فما ظنك بنفقاته وصلاته وغير ذلك، فاستعظمه. وكان الرشيد قد دفع (يحي بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي) الى (جعفر بن يحي بن خالد) فحبسه، ثم أطلق سراحه بدون علم الرشيد؛ وبدون اذن منه. ثم قام (علي بن عيسى بن ماهان) فأعلم الرشيد بأن (موسى بن يحي بن خالد) يكاتب أنصاره في خراسان؛ وأنه يواعدهم ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة. وبدأ الرشيد في التغير على البرامكة؛ حتى إذا ما كانت سنة سبع وثمانين ومائة. عزم الرشيد أمره؛ واستدعى (جعفراً) إليه وأمر بقتله؛ كما أمر بحبس (يحي وولده). وأخذ مالهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك؛ وأرسل من ليلته إلى سائر البلاد في قبض أموالهم ووكلائهم ورقيقهم وأسبابهم وكل ما لهم. فلما أصبح أرسل جيفة جعفر إلى بغداد وأمر أن ينصب رأسه على جسر ويقطع بدنه قطعتين تنصب كل قطعة على جسر. ولم يتعرض الرشيد لمحمد بن خالد بن برمك وولده وأسبابه لأنه علم براءته مما دخل فيه أهله. ثم حبس (يحي وبنيه الفضل ومحمداً وموسى) محبساً سهلاً ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه من جارية وغيرها. ولم تزل حالهم سهلة حتى قبض على (عبدالملك بن صالح) فعمهم بسخطه؛ وجدد له ولهم التهمة عند الرشيد؛ فضيق عليهم. **ولما قتل (جعفر بن**

(*) القصيدة طويلة: تاريخ الطبري والكامل في التاريخ ـ سيرة الرشيد احداث سنة ١٩٣ هـ.

يحيى) قيل لأبيه: «قتل الرشيد ابنك» قال: «كذلك يقتل ابنه» قيل: «وقد أخرب ديارك» قال: «كذلك تخرب دياره».

توفيت أم الرشيد ـ الخيزران ـ سنة ثلاث وسبعين ومائة؛ فحمل الرشيد جنازتها؛ ودفنها في مقابر قريش؛ ورئي الرشيد يوم ماتت أمه وعليه جبة سعدية؛ وطيلسان خرق أزرق؛ قد شد به وسطه؛ وهو آخذ بقائمة السرير حافياً يعدو في الطين والوحل من المطر؛ الذي كان في ذلك اليوم؛ حتى إذا ما وصل مقابر قريش؛ غسل رجليه؛ ثم دعا بخف؛ وصلى عليها؛ ودخل قبرها؛ ثم خرج وتمثل بقول (متمم بن نويرة) الأبيات المشهورة التي أولها:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

ثم تصدّق عنها بمال عظيم؛ وكان دخلها في السنة ستة آلاف وستين ألف ألف درهم تنفقها في الصدقات وأبواب البر.

حجّ الرشيد مرة؛ فدخل الكعبة؛ فرآه بعض الحجبة وهو واقف على أصابعه؛ يقول: «يا من يملك حوائج السائلين؛ ويعلم ضمير الصامتين؛ فإن لكل مسألة منك رداً حاضراً وجواباً عتيداً؛ ولكل صامت منك علم محيط ناطق بمواعيدك الصادقة؛ وأياديك الفاضلة؛ ورحمتك الواسعة؛ صل على محمد وعلى آل محمد؛ واغفر لنا ذنوبنا؛ وكفر عنّا سيئاتنا. يا من لا تضرّه الذنوب ولا تخفى عليه الغيوب ولا تنقصه مغفرة الخطايا. يا من كبس الأرض على الماء؛ وسد الهواء بالسماء؛ واختار لنفسه أحسن الأسماء؛ صل على محمد وعلى آل محمد؛ وخر لي في جميع أموري. يا من خشعت له الأصوات بأنواع اللغات يسألونه الحاجات؛ إن من حاجتي إليك أن تغفر لي ذنوبي إذا توفيتني وصيرت في لحدي وتفرق عني أهلي وولدي. اللهم لك الحمد حمداً يفضل كل حمد كفضلك على جميع الخلق. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون له رضا؛ وصل عليه صلاة تكون له ذخراً؛ واجزه عنا الجزاء الأوفى؛ اللهم أحينا سعداء وتوفنا شهداء؛ واجعلنا سعداء مرزوقين؛ ولا تجعلنا أشقياء مرجومين».

كان مع الرشيد (ابن أبي مريم المديني) وكان مضحاكاً فكهاً يعرف أخبار أهل الحجاز، وألقاب الأشراف، ومكايد المجان، فكان الرشيد لا يصبر عنه وأسكنه في قصره. فجاء ذات ليلة وهو نائم، فقام الرشيد إلى صلاة الفجر، فكشف اللحاف عنه، وقال: «كيف أصبحت؟». فقال: «ما أصبحت بعد، اذهب إلى عملك» قال الرشيد: «قم إلى الصلاة» فقال المديني: «هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف» فمضى الرشيد يصلي، وقام ابن أبي مريم، وأتى الرشيد فرآه يقرأ في الصلاة: **«ومالي لا أعبد الذي فطرني» فقال: «ما أدري والله»** فما تمالك الرشيد أن ضحك، ثم قال وهو مغضب: «في الصلاة أيضاً» قال: «ما صنعت؟» فرد عليه الرشيد: «قطعت علي صلاتي» قال: «والله ما فعلت، إنما سمعت منك كلاماً غمني حين قلت: ومالي لا أعبد الذي فطرني ـ فقلت: لا أدري». فعاد الرشيد الضحكة ثم قال له: **«إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما»**.

دخل ابن السماك على الرشيد، فبينما هو عنده إذ طلب ماء، فلما أراد شربه قال له ابن السماك: «مهلاً يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ، لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟» فأجاب الرشيد: «بنصف ملكي» قال ابن السماك: «اشرب الآن، فلما شرب سأله ابن السماك: «أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت خروجها من بدنك، بماذا كنت تشتريها؟» وأجاب الرشيد: «بجميع ملكي» فقال ابن السماك: «ان ملكاً لا يساوي شربة ماء وخروج بولة لجدير ان لا ينافس فيه» فبكى الرشيد.

اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره، وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه، وحاجبه الفضل ابن الربيع، وهم أتيه الناس وأعظمهم، ومغنيه ابراهيم الموصلي وزوجته زبيدة بنت عمه جعفر.

وجاءت سكرة الموت بالحق، ومرض الرشيد (بالري) وكان عنده (سهل بن صاعد) وهو يجود بنفسه، فدعا بملحفة غليظة فاحتبى بها، وجعل يقاسي ما يقاسي، فنهض سهل، فقال له الرشيد: «اقعد» فقعد سهل طويلاً، لا يكلمه الرشيد ولا هو

يكلم الرشيد. ثم عاد سهل فنهض، فقال له الرشيد: «أين يا سهل؟». فأجابه سهل: «ما يتسع قلبي يا أمير المؤمنين تعاني من المرض ما تعاني؛ فلو اضطجعت يا أمير المؤمنين» فضحك الرشيد ضحكاً صحيحاً، ثم قال: «يا سهل؛ أذكر في هذه الحال قول الشاعر:

وإني من قوم كرام يزيدهم شماساً وصبراً شدة الحدثان

ومات الرشيد؛ وعمره سبع وأربعون سنة ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة. وكان في بيت المال لما توفي تسعمائة ألف ألف ونيف.

٦ ـ محمد الأمين بن الرشيد

١٦٧ ـ ١٩٨ هـ = ٧٨٣ ـ ٨١٣م.

محمد الأمين هو سادس خلفاء بني العباس؛ ولي الخلافة وهو ابن ست وعشرين سنة. وكان أبوه الرشيد قد أوصى له بالخلافة من بعده بتأثير زوجته (زبيدة) وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين. وكان الرشيد يتوسم النجابة والرجاحة في عبدالله المأمون؛ وكان يقول: «والله إن فيه حزم المنصور ونسك المهدي وعزّة نفس الهادي؛ ولو شئت ان أقول الرابعة مني لقلت؛ وإني لأقدم محمد بن زبيدة وأعلم انه متبع هواه، ولكن لا أستطيع غير ذلك؛ ثم أنشأ يقول:

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني غلبت على الأمر الذي كان أحزما
وكيف يرد الدر في الضرع بعدما توزّع حتى صار نهباً مقسما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الأمر الذي كان أبرما

فلما كانت سنة ست وثمانين ومائة، أعاد الرشيد تنظيم دولته فولى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب؛ وضم إلى المأمون من همذان إلى آخر المشرق؛ ثم بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ولقبه (المؤتمن) وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم، وجعل أمر خلعه أو ابقائه الى المأمون؛ وفي ذلك قيل:

حب الخليفة حب لا يدين به من كان لله عاص يعمل الفتنا
الله قلد هاروناً سياستنا لما اصطفاه فأحيا الدين والسننا
وقلد الأرض هارون لرأفته بنا أميناً ومأموناً ومؤتمنا

ثم إن الرشيد سار إلى مكة ـ للحج ـ ومعه أولاده والفقهاء والقضاة والقواد؛ وكتب كتاباً أشهد فيه على محمد الأمين وأشهد فيه من حضر بالوفاء للمأمون. وكتب كتاباً للمأمون أشهدهم عليه بالوفاء للأمين. وعلق الكتابين في الكعبة؛ وجدد عليهما العهود في الكعبة. ثم إن الرشيد شخص في سنة تسع وثمانين ومائة الى قرماسين ومعه

المأمون؛ وأشهد على نفسه من عنده من القضاة والفقهاء ان جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك هو للمأمون وجدد له البيعة عليهم؛ وأرسل إلى بغداد فجدد له البيعة على محمد الأمين.

وتوفي الرشيد في (الري) وبويع الأمين بالخلافة في عسكر الرشيد صبيحة الليلة التي توفي فيها. وكتب صالح بن الرشيد إلى أخيه الأمين يخبره بوفاة الرشيد؛ وأرسل إليه الخاتم والقضيب والبردة، فلما أخبر الأمين وهو في بغداد؛ انتقل من قصره بالخلد إلى قصر الخلافة. وصلى بالناس الجمعة؛ ثم صعد المنبر فنعى الرشيد وعزى نفسه والناس ووعدهم الخير، وبايعه جل أهل بيته. وكتب الى أخيه المأمون ـ الذي كان في (الري) يأمره بترك الجزع وأخذ البيعة على الناس لهما ولأخيهما المؤتمن. كما كتب إلى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه؛ وأن يتصرف هو ومن معه برأي الفضل بن الربيع، وأرسل كتاباً إلى الفضل يأمره بالحفظ والاحتياط على ما معه من الحرم والأموال وغير ذلك؛ وأقر كل من كان إليه عمل على عمله مثل صاحب الشرطة والحرس والحجابة. فلما قرؤوا الكتب؛ تشاوروا هم والقواد في اللحاق بالأمين، فقال الفضل بن الربيع: «لا أدع ملكاً حاضراً لآخر ما أدري ما يكون من أمره». وأمر الناس بالرحيل فرحلوا محبة منهم لأهلهم ووطنهم؛ وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون. وحاول المأمون إعادتهم وتذكيرهم بعهودهم؛ إلا أنهم أعرضوا عنه. فالتفت لإعادة تنظيم اموره في خراسان؛ وأحسن السيرة في الناس؛ واعتمد على خاصتهم وأولهم قواد أبيه؛ وهم: عبدالله بن مالك ويحي بن معاذ وشبيب بن حميد بن قحطبة والعلاء بن هرون وهو على حجابته والعباس بن المسيب بن زهير وهو على شرطته وأيوب بن أبي سمير وهو على كتابته وذو الرياستين وهو أعظمهم عنده قدراً وأخصهم به.

وصل (الفضل بن الربيع) الى بغداد: وفكر في أمر نكثه لعهد المأمون؛ وعرف بأنه إن أفضت الخلافة الى المأمون ـ وهو حي ـ فإنه سيقتله لا محالة ـ فحث الأمين على خلع المأمون والبيعة لابنه موسى بولاية العهد ـ ولم يكن ذلك في عزم محمد الأمين ـ فلم يزل الفضل يصغر عنده أمر المأمون ويزين له خلعه؛ ووافقه على هذا (علي بن عيسى)

و(ماهان) و(السندي) وغيرهم؛ فرجع الأمين الى قولهم؛ ولم يعارضه إلاّ (عبدالله بن خازم) الذي قال ـ مما قاله ـ للأمين: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه» وجمع الأمين القواد؛ وعرض عليهم خلع المأمون فأبوا ذلك ـ حتى إذا دور (عبدالله بن خازم) عاد للقول: «يا أمير المؤمنين؛ لم ينصحك من كذبك؛ ولم يغشك من صدقك؛ لا تجرىء القواد على الخلع؛ فيخلعوك؛ ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك فإن الغادر مخذول والناكث مفلول». ولكن الأمين أعرض عن نصح الناصحين؛ ومضى مع **(الفضل بن الربيع)** و**(علي بن عيسى)**. وكان أول ما فعله هو أن كتب إلى جميع العمال بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء للمأمون والمؤتمن؛ فلما بلغ ذلك المأمون مع عزل المؤتمن عما كان بيده؛ أسقط اسم الأمين من الطرز ـ النقود ـ وقطع البريد عنه. وكان (رافع بن الليث بن نصر بن سيار) لما بلغه حسن سيرة المأمون؛ قد طلب الأمان؛ فأجابه إلى ذلك؛ فحضر عند المأمون. وأقام (هرثمة) بسمرقند ومعه (طاهر بن الحسين). ثم قدم هرثمة على المأمون؛ فأكرمه وولاه الحرس؛ فأنكر ذلك كله الأمين. وكتب الأمين الى (العباس بن عبدالله بن مالك) وهو عامل المأمون على الري؛ يأمره أن يرسل غرائب غروس الري ـ يريد امتحانه ـ فبعث إليه بما أمره وكتم ذلك عن المأمون وعن **ذي الرياستين (الفضل بن سهل)**. فلما بلغ المأمون ذلك عزله وعين مكانه (الحسن بن علي المأموني). ثم وجه الأمين أربعة من ثقاته لمناظرة أخيه المأمون، فلما علم المأمون كتب الى عماله بالري ونيسابور وغيرهما يأمرهم بإظهار العدة والقوة؛ ففعلوا ذلك، وقدم الرسل على المأمون ـ وسلموه رسالة أخيه الأمين التي طلب فيها أن ينزل له عن بعض كور خراسان؛ وأن يكون له عنده صاحب البريد يكتب بالاخبار. فامتنع المأمون من إجابته إلى ما طلب. **وأنفذ المأمون ثقته الى الحد ـ الحدود ـ حتى لا يعبر أحد إلى بلاده إلا مع ثقة من ناحيته؛ وحصر أهل خراسان أن يستمالوا برغبة أو رهبة؛ وضبط الطرق بثقات أصحابه؛ فلم يمكنوا من دخول خراسان إلا من عرفوه؛ وأتى بجواز، أو كان تاجراً معروفاً. وفتشت الكتب.**

عاد الأمين فأرسل كتاباً إلى المأمون؛ مع نفر؛ وأمرهم ان يبلغوا الجهد في إحضاره

الى بغداد؛ وسير معهم الهدايا الكثيرة؛ وقرأ المأمون الكتاب، وأحضر ذا الرياستين ـ الفضل بن سهل ـ وأقرأه الكتاب؛ واستشاره؛ فأشار عليه بملازمة خراسان؛ وخوفه من القرب من الأمين، فقال المأمون: «لا يمكنني مخالفته؛ وأكثر القواد والأموال معه؛ والناس مائلون إلى الدرهم والدينار؛ لا يرغبون في حفظ عهد ولا أمانة؛ ولست في قوة حتى أمتنع؛ وقد فارق جيغويه الطاعة؛ والتوى خاقان ملك التبت؛ واستعد ملك كابل للغارة على ما يليه؛ ومنع ملك اتراد بنده الضريبة؛ ومالي بواحد من هذه الأمور يد؛ وأنا أعلم ان محمداً لم يطلب قدومي إلا لشر يريده؛ ولا أرى إلاّ تخلية ما أنا فيه واللحاق بملك الترك خاقان والاستجارة به لعلي آمن على نفسي» فقال ذو الرياستين:

«إن عاقبة الغدر شديدة؛ وتبعة البغي غير مأمونة؛ ورب مقهور قد عاد قاهراً. وليس النصر بالكثرة والقلة؛ والموت أيسر من الذل والضيم؛ وما أرى ان تصير الى أخيك متجرداً من قوادك وجندك؛ كالرأس الذي فارق بدنه؛ فتكون عنده كبعض رعيته؛ يجري عليك حكمه من غير ان تبدي عذراً في قتال. واكتب الى جيغويه وخاقان فولهما بلادهما، وابعث الى ملك كابل بعض هدايا خراسان ووادعه؛ واترك لملك اتراد بنده ضريبته؛ ثم اجمع اليك أطرافك؛ وضم جندك، واضرب الخيل بالخيل والرجال بالرجال، فإن ظفرت وإلاّ لحقت بخاقان». وفعل المأمون ما أشار به الفضل بن سهل ـ ذو الرياستين ـ فرضي اولئك الملوك العصاة؛ وضم جنده وجمعهم عنده ـ وكتب إلى الأمين: **«أما بعد! فقد وصل إلي كتاب امير المؤمنين؛ وإنما أنا عامل من عماله؛ وعون من أعوانه؛ أمرني الرشيد بلزوم الثغر؛ ولعمري إن مقامي به أرد على أمير المؤمنين وأعظم غناء للمسلمين من الشخوص الى أمير المؤمنين. فإن كنت مغتبطاً بقربه مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقرني على عملي ويعفيني من الشخوص إليه؛ فعل إن شاءالله»**. فلما قرأ الأمين رسالة المأمون؛ عرف انه لن يتابعه الى ما يريد. فأرسل وفداً لتحريض العامة، فوجد الوفد تدبيراً محكماً، وحوصروا في حال سفرهم وإقامتهم؛ ومنعوا من أن يخبروا أو يستخبروا. فلما رجعوا أخبروا الأمين بما رأوا.

سار الأمين خطوة أخرى على درب القطيعة مع أخيه المأمون، فأعلن (سنة خمس وتسعين ومائة) البيعة لابنه موسى ولقبه (الناطق بالحق) ولابنه الآخر عبدالله ولقبه (القائم بالحق). وأمر بإسقاط ما كان ضرب لأخيه المأمون من الدراهم والدنانير بخراسان. ونهى عن ذكر المأمون والمؤتمن على المنابر. فانصرف ذو الرياستين (الفضل ابن سهل) لتدبير الأمور؛ وكان أول ما فعله هو أنه جمع الأجناد الذين كان قد حشدهم بجنبات الري مع الأجناد الذين كانوا بها، وأمدهم بالأقوات وغيرها - وكانت البلاد عندهم قد أجدبت - فأكثر عندهم ما يريدونه حتى صاروا في أرغد عيش وأقاموا على الحدود لا يتجاوزونها؛ ثم أرسل إليهم طاهر بن الحسين بن مصعب ابن زريق بن أسعد - أبا العباس الخزاعي - أميراً؛ فيمن ضم إليه من قواده وأجناده، فسار مجداً حتى ورد الري؛ فنزلها ووضع المسالح وبث عيونه وطلائعه؛ وظهر بوضوح ان الحرب باتت وشيكة الوقوع؛ وفي ذلك قال بعض شعراء خراسان:

رمى أهل العراق ومن عليها ... إمام العدل والملك الرشيد
بأحزم من مشى رأياً وحزماً ... وكيداً نافذاً مما يكيد
بداهية تؤود خنيفقيق ... يشيب لهول صولتها الوليد

كان لذي الرياستين (الفضل بن سهل) عيونه في بغداد، والذين كانوا يوافونه بالاخبار أولاً بأول. وكان (الفضل بن الربيع) قد حفظ الطرق غير أن عيون الفضل ابن سهل استطاعت متابعة عملها. وكان أحد عيون (الفضل بن سهل) هو أحد الذين يعتمد (الفضل بن الربيع) على قوله ورأيه. فكتب ذو الرياستين (ابن سهل) إلى ذلك الرجل يأمره بأن يشير على (ابن الربيع) بإرسال (علي بن عيسى بن ماهان) لحرب المأمون؛ ذلك لأن (ابن ماهان) كان قد ولي خراسان أيام الرشيد، فأساء السيرة في أهلها؛ وظلمهم؛ فعزله الرشيد لذلك؛ ونفر أهل خراسان عنه وأبغضوه؛ فأراد ذو الرياستين ان يزداد أهل خراسان جداً في محاربة الأمين وأصحابه. وفي الوقت ذاته وصلت رسائل من أهل خراسان إلى (علي بن عيسى) ذكروا فيها أنه إذا قصدهم أطاعوه وانقادوا له، وإن كان غيره فلا. وأصدر الأمين أمره إلى (علي بن عيسى) بالتوجه لحرب المأمون. ولما عزم (علي بن عيسى) على المسير من بغداد، ركب إلى

باب زبيدة ـ أم الأمين ـ ليودعها فقالت له: «**يا علي! إن أمير المؤمنين كان ولدي وإليه انتهت شفقتي، فإني على عبدالله ـ المأمون ـ منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى. وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه الكريم؛ يأكل لحمه ويميته غيره؛ فاعرف لعبدالله حق والده وإخوته؛ ولا تجبهه بالكلام فإنك لست بنظيره؛ ولا تقتسره اقتسار العبيد؛ ولا توهنه بقيد؛ ولا غل؛ ولا تمنع عنه جارية ولا خادماً؛ ولا تعنف عليه في السير؛ ولا تساوه في المسير؛ ولا تركب قبله؛ وخذ بركابه؛ وإن شتمك فاحتمل منه**» ثم دفعت إليه قيداً من فضة؛ وقالت: «إن صار إليك فقيده بهذا القيد» فقال لها: «سأفعل مثل ما أمرت».

وركب (علي بن عيسى). وخرج الأمين يشيعه ومعه القواد والجنود؛ وذكر مشايخ بغداد أنهم لم يروا عسكراً أكثر رجالاً وأفره كراعاً وأتم عدة وسلاحاً من عسكره. غير أن (علي بن عيسى) أظهر استهانة بخصمه؛ فقال عندما وصل إلى (جلولاء): «**إن السخال لا تقوى على النطاح؛ والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسد**». هذا فيما كان قائد المأمون (طاهر بن الحسين) يعد قواته؛ ويحشدها بحذر؛ ويتخذ كل ما هو ضروري من التدابير. ثم سار بهم من (الري) الى بلدة قريبة (اسمها كلواص) ودارت هناك معركة طاحنة أظهر فيها (طاهر) كفاءة عالية في تدمير قوات خصمه على التتابع بهجمات منظمة متتالية ـ ولم تكن هذه القوات تزيد على أربعة آلاف وهم أقل من جيش خصمهم تسليحاً وتجهيزاً ـ. وانتهت المعركة بانتصار طاهر وهزيمة (علي بن عيسى). وكتب طاهر إلى المأمون وذي الرياستين: «**بسم الله الرحمن الرحيم. كتابي إلى أمير المؤمنين؛ ورأس علي بن عيسى بين يدي؛ وخاتمه في أصبعي؛ وجنده مصرفون تحت أمري ـ والسلام**». وترددت أصداء هذه المعركة قوية في عاصمة الأمين فقال بعض شعراء بغداد:

أضـاع الخلافـة غش الوزيـر ... وفسـق الأمير وجهـل المشير
ففضـل وزيـر؛ وبكـر مشير ... يـريـدان مـا فيـه حتـف الأمير
ومـا ذاك إلا طـريـق غـرور ... وشر المسالـك طـرق الغـرور

أرسل الأمين جيشاً من عشرين ألف مقاتل بقيادة عبدالرحمن بن جبلة الأنباري.

وعندما وصل هذا الجيش الى (همذان). هاجمه (طاهر بن الحسين) وانتصر عليه؛ ومزق جيشه شر ممزق. واستمر الأمين بعد ذلك في إرسال الجيوش التي لم يكن حظها أفضل من حظ من سبقها. وكان كل نصر يحرزه (طاهر بن الحسين) يزيد من قوته؛ ومن توسيع حدوده؛ حتى وصل إلى واسط واحتلها، وأتبعها بالمدائن، ثم شرع بحصار بغداد وقذفها بالمجانيق فدمّرها، وقال العتري:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين	ألم تكوني زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم	وكان قربهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا	ماذا لقيت بهم من لوعة البين
استودع الله قوماً ما ذكرتهم	إلاّ تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم	والدهر يصدع ما بين الفريقين

وتتابعت المحن والكوارث على بغداد؛ وانتهى الأمر بدخول جند طاهر إليها؛ وقتل الأمين وحمل رأسه إلى أخيه المأمون. الذي دخل بغداد؛ ونادى الناس بالأمان؛ فأمنوا. وانتهت خلافة الأمين التي كانت مدتها أربع سنين وثمانية أشهر. وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة. وانطلق الشعراء لرثاء الأمين وآخرون لمديح المأمون؛ وظهر من أقوال هؤلاء وأولئك ان (حرب الخلافة بين الأخوين) قد قسمت الجبهة الداخلية للمسلمين؛ ومزقتها تمزيقاً لا سبيل الى اصلاحه ـ.

(*) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ ـ احداث سنة سبع وثمان وتسعين ومائة.

لا ـ عبد الله المأمون بن الرشيد
١٧٠ ـ ٢١٨ هـ = ٧٨٦ ـ ٨٣٣ م.

جاء سابع خلفاء بني العباس ـ المأمون ـ على جثة أخيه ؛ ولقد فتحت الحرب بين الأخوين باب الفتن على مصراعيه ؛ فكثرت اعمال التمرد ، وتفاقمت الفتن ؛ واضطرب حبل الأمن. ولكن المأمون استطاع التغلب على مشكلاته الداخلية خلال سنوات من الصراع المرير ؛ واستعان في ذلك بأهل خراسان ـ العجم ـ فعلت منزلتهم ؛ وعظم شأنهم. وذكر ان رجلاً تعرض للمأمون بالشام مراراً ؛ وقال له : « يا أمير المؤمنين! انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان » فأجابه المأمون : « أكثرت علي والله! ما أنزلت قيساً من ظهور خيولها إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ـ يعني فتنة ابن شبث العامري ـ. وأما اليمن ؛ فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط. وأما قضاعة فساداتها تنتظر خروج السفياني حتى تكون من أشياعه. وأما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث الله نبيّه من مضر. ولم يخرج اثنان إلا وخرج أحدهما سائساً ».

وكان المأمون بدمشق، وقد قل المال عنده حتى أضاق ؛ وشكا ذلك إلى المعتصم ؛ فقال له : « يا أمير المؤمنين! كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعة ». وكان قد حمل إليه ثلاثون ألف ألف درهم من خراج ما يتولاه له ؛ فلما ورد عليه المال ، قال المأمون ليحيي بن أكثم : « اخرج بنا ننظر هذا المال » فخرجا ينظرانه ؛ وكان قد هيء بأحسن هيئة. فنظر المأمون إلى شيء حسن واستكثر ذلك فاستبشر به. والناس ينظرون إليه ويعجبون منه. فقال المأمون : « يا أبا محمد ! نتصرف بالمال وأصحابنا يرجعون خائبين. إن هذا للؤم » ثم دعا محمد بن يزداد ، فقال له : « وقع لآل فلان بألف ألف ؛ ولآل فلان بمثلها ؛ ولآل فلان بمثلها » فما زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف ورجله في الركاب. ثم قال : « ادفع الباقي إلى المعلى ، يعطيه جندنا ».

كان بالبصرة رجل من بني تميم بن سعد ، وكان شاعراً ظريفاً خبيثاً ؛ وكان محمد بن

أيوب بن جعفر بن سليمان يأنس به ويستطيب معاشرته، فقال له يوماً: «أنت شاعر وأنت ظريف، والمأمون أجود من السحاب الحافل. فما يمنعك منه؟» فأجاب الشاعر: «ما عندي ما يحملني» فقال له محدثه: «أنا أعطيك راحلة ونفقة» وأعطاه راحلة نجيبة وثلاثمائة درهم. فعمل الشاعر أرجوزة ليست بالطويلة، ثم سار إلى المأمون حتى وصل إلى (بسلغوس) فلبس ثيابه وهو يريد معسكر المأمون، فإذا به أمام كهل على بغل فاره، فتلقاه مواجهة وهو يردد نشيد أرجوزته، فقال له: «السلام عليك» فرد الشاعر: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته». فقال له الكهل: «قف إن شئت». ووقف الشاعر وقد تضوعت منه رائحة المسك والعنبر - وسأله الكهل: «ما أولك؟» وأجاب الشاعر: «رجل من مضر». وعقب الكهل: «ونحن من مضر - ثم ماذا؟» ورد الشاعر: «ثم من بني تميم. ومن بني سعد، قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أندى رائحة ولا أوسع راحة». وسأله الكهل: «فما الذي قصدته به؟» وقال الشاعر: «شعر طيب يلذ على الأفواه ويحلو في آذان السامعين» فقال الكهل: «أنشدنيه» فغضب الشاعر، وقال: «ياركيك، أخبرتك أني قصدت الخليفة بمديح، فتقول: أنشدنيه». وتغافل الكهل عن الجواب وعاد فسأل الشاعر: «فما الذي تأمل منه؟» فقال الشاعر: «إن كان على ما ذكر لي فألف دينار» فقال الكهل: «أنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيداً والكلام عذباً. وأضع عنك العناء وطول الترداد حتى تصل الى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامح ونابل؟». فقال الشاعر: «فلي عليك الله أن تفعل!» وأجاب الكهل: «نعم، لك الله علي ان أفعل» فأنشده الشاعر.

مأمون ذا المنزلة الشريفة ... وصاحب المرتبة المنيفة
وقائد الكتيبة الكثيفة ... هل لك في أرجوزة ظريفة
أظرف من فقه أبي حنيفة ... لا والذي أنت له خليفة
وما ظلمت في أرضنا ضعيفة ... أميرنا مؤنته خفيفة
وما اقتنى شيئاً سوى الوظيفة ... فالذئب والنعجة في سقيفة
واللص والتاجر في قطيفة.

وهنا وقعت المباغتة التي أذهلت الشاعر، إذ لم يكد يكمل إنشاد أرجوزته حتى

جاء زهاء عشرة آلاف فارس، قد سدوا الأفق، وهم يقولون: « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » وأخذته الرعدة؛ فنظر إليه الكهل ـ المأمون ـ وهو بتلك الحال، وقال له: « لا بأس عليك أي أخي » فقال له الشاعر: « يا أمير المؤمنين! جعلني الله فداك؛ من جعل الكاف مكان القاف من العرب؟ » فأجابه المأمون: « حمير! » فقال الشاعر: « لعن الله حمير؛ ولعن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم ». وضحك المأمون: وقال لخادم معه « اعطه ما معك » فأخرج فيه كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار. فأخذها الشاعر ومضى. ومعنى سؤاله عن وضع الكاف موضع القاف أنه أراد أن يقول: « يا رقيق » فقال: « يا ركيك ».

قال عمارة بن عقيل: « أنشدت المأمون قصيدة مائة بيت؛ فأبتدىء بصدر البيت؛ فيبادرني إلى قافيته كما قفيته. فقلت: والله يا أمير المؤمنين ما سمعها مني أحد قط. فقال: هكذا ينبغي ان يكون. ثم قال لي: أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبدالله ابن عباس قصيدته التي يقول فيها: يشط عداداً وجيراننا ـ فقال ابن عباس: وللدار بعد غد أبعد ـ حتى أنشده القصيدة يقفيها ابن عباس. ثم قال: « أنا ابن ذاك ».

وذكر أن المأمون قال:

بعثتك مرتاداً ففزت بنظرة ... وأغفلتني حتى أسأت بك الظنا
فناجيت من أهوى وكنت مباعداً ... فياليت شعري عن دنوك ما أغنى
أرى أثراً منه بعينيك بينا ... لقد أخذت عيناك من عينه حسنا

قيل: وإنما أخذ المأمون هذا المعنى من العباس بن الأحنف الذي قال بهذا المعنى:

إن تشق عيني بها فقد سعدت ... عين رسولي وفزت بالخبر
وكلما جاءني الرسول لها ... وددت عهداً في عينه نظري
خذ مقلتي يا رسول عارية ... فانظر بها واحتكم على بصري

وقال عمارة بن عقيل: « قال لي عبدالله بن أبي السمط: أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر؟ قلت: ومن يكون أعلم منه؛ فوالله إنا لننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره. قال: إني أنشدته بيتاً أجدت فيه فلم يتحرك له. قلت: وما هو؟ قال:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغيل.

قال: فقلت والله ما صنعت شيئاً؛ هل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها. فإذن من يقوم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها؟ ألا قلت كما قال جدي جرير في عبد العزيز بن الوليد:

فلا هو في الدنيا يضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله.

فقال: الآن علمت أني قد اخطأت.

وجاءت سكرة الموت بالحق؛ فأسرع المأمون لكتابة وصيته، وأمر أن يكتب إلى البلاد الكتب من عبدالله المأمون أمير المؤمنين وأخيه الخليفة من بعده أبي اسحق بن هارون الرشيد. وأوصى إلى المعتصم بحضرة ابنه العباس وبحضرة الفقهاء والقضاة والقواد - وكان مما تضمنته وصيته إلى أخيه: «يا أبا إسحق! ادن مني واتعظ بما ترى وخذ بسيرة أخيك في القرآن والإسلام. **واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله؛ الخائف من عقابه وعذابه؛ ولا تغتر بالله ومهلته، وكأن قد نزل بك الموت. ولا تغفل أمر الرعية والعوام؛ فإن الملك بهم وبتعهدك لهم. الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين.** ولا ينتهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك. وخذ من أقويائهم لضعفائهم؛ ولا تحمل عليهم في شيء. وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم؛ وقربهم وتأن بهم؛ وعجل الرحلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق. وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم؛ في خراسان؛ فلا تغفل عنهم في كل وقت. **والخرمية فأغزهم ذا حرمة وصرامة وجلد واكنفه بالأموال والجنود. فإن طالت مدّتهم فتجرد لهم فيمن معك من أنصارك وأوليائك؛ واعمل في ذلك عمل مقدّم النية فيه؛ راجياً ثواب الله...** يا أبا إسحق! عليك عهدالله وميثاقه وذمة رسول الله ﷺ؛ لتقومن بحق الله في عباده، ولتؤثرن طاعة الله على معصيته إذ أنا نقلتها من غيرك إليك... أستودعكم الله ونفسي؛ وأستغفر الله ما سلف مني إنه كان غفّاراً، فإنه ليعلم كيف ندمي على ذنوبي؛ فعليه توكلت من عظيمها وإليه أنيب؛ ولا قوة إلا بالله؛ حسبي الله ونعم الوكيل؛

وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة ». وأغمض المأمون عينيه عن الدنيا وهو يقول: **« يا من لا يموت ارحم من يموت »**. وكان عمره ثمان وأربعون سنة ـ ومدة خلافته عشرين سنة وستة أشهر ـ ودفن بطرسوس.

٨ - المعتصم - أبو إسحق محمد بن الرشيد
١٧٩ - ٢٢٧ هـ = ٧٩٥ - ٨٤١ م.

هو ثامن الخلفاء العباسيين؛ والثامن من ولد العباس؛ ولد في الشهر الثامن من سنة ثمانين ومائة - على ما قيل - وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر؛ ومات عن ثمانية بنين وثمان بنات. إنه ابو اسحق محمد بن هرون الرشيد؛ بويع له بالخلافة بعد موت المأمون. ولما بويع له؛ شغب الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون. فأرسل إليه المعتصم؛ فأحضره فبايعه ثم خرج إلى الجند، فقال لهم: « ما هذا الحب البارد؟ قد بايعت عمي ». فسكتوا. وأمر المعتصم بخراب ما كان المأمون قد أمر ببنائه من طوانة - في بلاد الروم - وحمل ما أطاق حمله من السلاح والآلة التي بها؛ وأحرق الباقي. وأعاد الناس الذين بها إلى البلاد التي لهم. وانصرف الى بغداد ومعه العباس بن المأمون.

خرج المعتصم سنة عشرين ومائتين الى (سر من رأى - سامراء) لبنائها؛ وقال في ذلك: « إني أتخوف هؤلاء الحربية أن يصيحوا صيحة فيقتلون غلماني؛ فأريد ان أكون فوقهم؛ فإن رابني منهم شيء أتيتهم في البر والماء حتى آتي عليهم ». فخرج إليها فأعجبه مكانها. وقيل كان سبب ذلك أن المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك، فكانوا لا يزالون يرون الواحد بعد الواحد قتيلاً؛ وذلك أنهم كانوا جفاة؛ يركبون الدواب فيركضونها إلى الشوارع؛ فيصدمون الرجل والمرأة والصبي. فيأخذهم الأبناء عن دوابهم ويضربونهم وربما هلك أحدهم؛ فتأذى بهم الناس. ثم إن المعتصم ركب يوم عيد فقام إليه شيخ فقال له: « يا أبا إسحق! » فأراد الجند ضربه فمنعهم؛ وقال: « يا شيخ! مالك؟ مالك؟ ». فقال الشيخ: « لا جزاك الله عن الجوار خيراً؛ جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك؛ فأسكنتهم بيننا؛ فأيتمت صبياننا؛ وأرملت بهم نساءنا؛ وقتلت رجالنا » والمعتصم يسمع ذلك؛ فدخل منزله، ولم ير راكباً إلى مثل ذلك اليوم؛ فخرج فصلى بالناس العيد؛ ولم يدخل بغداد؛ بل سار الى ناحية

(القاطول) ولم يرجع الى بغداد. وكان المعتصم قد سأل: «أين كان يتنزه الرشيد إذا ضجر من المقام ببغداد؟ فقيل له: بالقاطول». وكان قد بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم، وكان قد خاف من الجند ما خاف المعتصم. وبدأ المعتصم ببناء سامرا.

لم يكن للمعتصم لذة في تزيين البناء؛ وكانت غايته فيه الإحكام. ولم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنفقة في الحرب. وكان إذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل. قال ابن أبي داود: استخرجت من أموال المعتصم ألفي ألف درهم لكري نهر اندفن في صدر الإسلام - في الشاش؛ فأضرّ بهم ذلك، فقال لي المعتصم: «يا أبا عبد الله؛ مالي وما لك؟ تأخذ مالي لأهل الشاش وفرغانة!» فقلت: «هم رعيتك يا أمير المؤمنين؛ والأقصى والأدنى في حسن نظر الإمام سواء».

قال المعتصم يوماً وهو يحدث أبا الحسين إسحق بن إبراهيم: «يا إسحق! في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة؛ نظرت الى أخي المأمون، وقد اصطنع أربعة أنجبوا؛ واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم. اصطنع طاهر بن الحسين؛ وقد رأيت وسمعت؛ وعبدالله بن طاهر؛ فهو الرجل الذي لم ير مثله. وأنت؛ فأنت والله لا يعتاض السلطان منك أبداً؛ وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد؟ وأما أنا فاصطنعت الأفشين. وقد رأيت إلى ما صار أمره. واصطنعت اشناس ففشل آيه؛ وإيتاخ فلا شيء، ووصيف فلا مغنى فيه» وأجابه أبو اسحق: «يا أمير المؤمنين! جعلني الله فداك! أجيب على أمان من غضبك» قال: أجل. فأكمل أبو اسحق حديثه وهو آمن: **«يا أمير المؤمنين! أعزك الله؛ نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها. واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها». فقال المعتصم: «يا أبا إسحق! لمقاساة ما مر بي في طول هذه المدة؛ أسهل علي من هذا الجواب». وقال المعتصم يوماً: «إذا نصر الهوى بطل الرأي».**

انقطع المعتصم عن أصحابه في يوم مطر؛ فبينا هو يسير رحله إذ رأى شيخاً معه حمار عليه حمل شوك، وقد زلق الحمار وسقط؛ والشيخ قائم ينتظر من يمر به فيعينه على حمله. فسأله المعتصم عن حاله؛ فأخبره؛ فنزل عن دابته ليخلص الحمار عن الوحل؛

ويرفع عليه حمله. فقال له الشيخ: « بأبي أنت وأمي! لا تبلل ثيابك وطيبك » فقال له المعتصم: « لا عليك ». ثم إنه خلص الحمار؛ وجعل الشوك عليه؛ وغسل يديه ثم ركب. فقال له الشيخ، « غفر الله لك يا شاب ». ثم لحقه أصحابه؛ فأمر له بأربعة آلاف درهم ووكل به من يسير معه إلى بيته.

واعتل المعتصم؛ واحتجم، فزاد اعتلالاً؛ ولما أفاق؛ قال: « هيئوا لي الزلال لأركب غداً ». وركب المعتصم الزلال ومعه زنام الزامر، فقال له المعتصم: يا زنام ازمر لي.

يـا منـزلاً لم تبـل أطلالـه	حـاشا لأطلالـك ان تبلى
لم أبـك أطلالـك لكنني	بكيـت عيشي فيـك إذ ولى
والعيش أولى مـا بكـاه الفتى	لا بـد للمحـزون أن يسلى

فمازال - زنام الزامر - ينشد هذه الأبيات ويرددها؛ وقد تناول المعتصم منديلاً؛ وهو يبكي وينتحب؛ حتى رجع الى منزله. وعندما جاءته سكرة الموت قال: « لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت ما فعلت... ذهبت الحيل ليست لي حيلة حتى أُصْمِتَ ». ومات المعتصم وعمره سبع وأربعون سنة. وبويع يوم وفاته ابنه (هارون الواثق) ودفن المعتصم في (سامرا).

٩ ـ الواثق بالله هرون بن المعتصم
١٩٨ ـ ٢٣٢ هـ = ٨١٣ ـ ٨٤٦ م.

انتقلت الخلافة إلى تاسع خلفاء بني العباس (هرون بن المعتصم). وقال الشاعر (علي بن الجهم) يمتدح الخليفة الجديد:

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين   بدولة الواثق هرون
أفاض من عدل ومن نائل   ما أحسن الدنيا مع الدين
قد عم بالإحسان في فضله   فالناس في خفض وفي لين
ما أكثر الداعي له بالبقا   وأكثر التالي بآمين

ومضت أيام قليلة على تولي الواثق بالله إمارة المؤمنين. وقعد مجلساً غنت فيه (شارية ـ جارية إبراهيم بن المهدي):

ما درى الحاملون يوم استقلوا   نعشه للثواء أم للفناء
فليقل فيك باكياتك ما شئـ   ـن صباحاً ووقت كلِّ مساء.

فبكى الواثق، وبكى حضور المجلس؛ حتى شغلهم البكاء عن جميع ما كانوا فيه. ثم اندفع بعض المغنين فغنى:

ودع هريرة إن الركب مرتحل   وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

فازداد الواثق بكاء؛ وقال: «ما سمعت كاليوم قط تعزية بأب ونعي نفس» ثم ارفض المجلس. وقال (علي بن الجهم) يمتدح الواثق:

وثقت بالملك الوا   ثق بالله النفوس
ملكٌ يشقى به الما   لُ ولا يشقى الجليس
أنس السيف به واستـ   ـوحش العلق النفيس
أسد تضحك عن   شداته الحرب العبوس
يا بني العباس يأبى الله إلا أن تسوسوا

ومرض الواثق ـ مرض الاستسقاء ـ. وأمر بإحضار المنجمين؛ فنظروا في علّته ونجمه ومولده فقالوا: «يعيش دهراً طويلاً» وقدروا له خمسين سنة مستقبلية. فلم يلبث إلا عشرة أيام حتى مات؛ وعمره ست وثلاثون؛ ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر ـ ودفن في قصره بالهاروني.

١٠ ـ المتوكل على الله ـ جعفر بن محمد بن هرون ٢٠٧ ـ ٢٤٧ هـ = ٨٢٢ ـ ٨٦١ م.

جاءته الخلافة على غير موعد؛ وذهبت عنه قسراً وظلماً وقهراً. إنه عاشر خلفاء بني العباس وبينه بين أولهم قرن ونيف من عمر الزمن. توفي الواثق؛ وحضر إلى داره كلّ من أحمد بن أبي دؤاد؛ وايتاخ؛ ووصيف، وعمر بن فرج؛ ومحمد بن عبدالملك الزيات؛ وأحمد بن خالد أبو الوزير؛ فعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق وهو غلام أمرد؛ فألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية، فإذا هو قصير؛ فقال لهم وصيف: **«أما تتقون الله! تولون مثل هذا الخلافة؛ وهو لا يجوز معه الصلاة»**. فتناظروا فيمن يولونها؛ فذكروا عدة. وأثناء ذلك كان جعفر المتوكل قاعداً مع أبناء الأتراك وليس عليه إلا قميص وسروال ـ وله من العمر ست وعشرون سنة؛ فاستدعاه ـ بغا الشرابي ـ. وألبسه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعممه وقبّله بين عينيه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وكتب البيعة له محمد بن عبدالملك الزيات ـ وهو إذ ذاك على ديوان الرسائل ـ وتقرر إعطاؤه لقب (المتوكل على الله). وصدر الأمر الى الولاة والأقاليم؛

(بسم الله الرحمن الرحيم. أمر أمير المؤمنين أطال الله بقاءه أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره على أعواد منابره وفي كتبه إلى قضاته وكتابه وعمّاله وأصحاب دواوينه وغيرهم من سائر من تجري المكاتبة بينهم وبينه ـ من عبدالله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين».

حاول المتوكل التحرر من سيطرة المتحكمين بالدولة، فتخلص من محمد بن عبدالملك الزيّات وإيتاخ ـ بقتله ـ. وظهر له خطر النصارى في ديار المسلمين؛ فحاول الحد من دورهم، وأصدر كتاباً إلى كافة الأقاليم (سنة خمس وثلاثين ومائتين) بأخذ النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وركوب السروج بركب

الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج، وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون؛ وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونها لون الثوب الظاهر الذي عليه، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره؛ والأخرى منها خلف ظهره. وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع؛ ولونها عسلياً؛ ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسلي. ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي. وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير؛ وبمنعهم لبس المناطق . وأمر بهدم بيعهم المحدثة؛ وبأخذ العشر من منازلهم؛ وإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً. وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صير فضاء. وأمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة؛ تفريقاً بين منازلهم وبين منازل المسلمين. ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين. ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين؛ ولا يعلمهم مسلم؛ ونهى في أن يظهروا في شعانينهم صليباً، أو أن يشمعلوا - يسرعوا - في الطريق. وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض؛ لئلا تشبه قبور المسلمين.
وقال الشاعر (علي بن الجهم) في أمر المتوكل هذا :

العسليات التي فرقت   بين ذوي الرشدة والغي
وما على العاقل أن تكثُروا   فإنه أكثر للفيِّ

وسار المتوكل على نهج الرشيد في البيعة لأبنائه من بعده، فعقد البيعة لبنيه الثلاثة: لمحمد وسمّاه (المنتصر) ولأبي عبدالله ابن قبيحة ويختلف في اسمه فقيل إن اسمه (محمد) وقيل (الزبير) ولقبه (المعتز) ولإبراهيم وسماه (المؤيد) بولاية العهد. وعقد لكل واحد منهم لواءين: أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل؛ وضم الى ابنه (**محمد المنتصر**) من ذلك إفريقية والمغرب كله من عريش مصر الى حيث بلغ سلطانه المغرب؛ وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية؛ وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكور - نواحي - باجرمي وتكريت وطساسيج السواد؛ وكور دجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفرج بيت الذهب وكور الأهواز

والمستغلات بسامرا وماه الكوفة وماه البصرة وماسبذان ومهرجان قذق وشهرزور ودراباذ والصامغان وأصبهان وقم وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة إلى الجبال وصدقات العرب بالبصرة. وكان ما ضم الى ابنه **(المعتز)** كور خراسان وما يضاف إليها وطبرستان والري وإرمينية وأذربيجان وكورفارس. بالإضافة الى خزن بيوت الأموال في جميع الآفاق. ودور الضرب؛ وأمر بضرب اسمه على الدراهم. وكان ما ضم إلى ابنه **(المؤيد)** جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين. فقال الشاعر أبو الغصن الأعرابي:

إن ولاة المسلمين الجلّة　　　محمد ثم أبو عبدالله
ثمت إبراهيمُ آبي الذِّلة　　　بورك في بني خليفة الله. (★)

وقال ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول يمدح بني المتوكل الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد.

أضحت عرى الإسلام وهي منوطةٌ　　　بالنصر والإعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة　　　كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمرٌ توالت حوله أقماره　　　يكنفن مطلع سعده بسعود
كنفتهم الآباء واكتنفت بهم　　　فسعوا بأكرم أنفس وجدود

وله في المعتز بالله:

أشرق المشرق بالمعتز بالله ولاحا
إنما المعتز طيب　　　بث في الناس ففاحا

وله أيضاً:

الله أظهر دينه　　　وأعزه بمحمد
والله أكرم بالخلا　　　فة جعفر بن محمد
والله أيد عهده　　　بمحمد ومحمد
ومؤيد لمؤيدين　　　الى النبي محمد

(★) نص كتاب المتوكل إلى الأمصار بمعاملة النصارى؛ وبولاية العهد لأبنائه في تاريخ الطبري - والكامل في التاريخ أحداث سنة خمس وثلاثين ومائتين.

وتوجه المتوكل الى دمشق (سنة ثلاث وأربعين ومائتين) وفي ذلك قال الشاعر يزيد ابن محمد المهلبي:

أظـن الشـام تشمـت بـالعـراق إذا عـزم الإمـام على انطـلاق
فـإن تـدع العـراق وسـاكنيهـا فقـد تبلى المليحـة بـالطـلاق

وقد عزم (المتوكل) على الإقامة في دمشق ونقل دواوين الملك اليها؛ وأمر بالبناء بها؛ فتحرك الأتراك في أرزاقهم وأرزاق عيالاتهم؛ فأمر لهم بما أرضاهم به. وقيل انه استوبأ البلد فعاد الى سامرا بعد إقامته في دمشق شهرين وأياماً.

وكان طبيب القصر منذ أيام الرشيد ـ هو بختيشُوع ـ ويظهر أنه كان يتجاوز حدود عمله ممّا أوغر صدر المتوكل، فنفاه الى البحرين؛ وقبض ماله ـ فقال أعرابي:

يـا سخطـة جـاءت على مقـدار ثـار لـه الليـث على اقتـدار
منـه وبختيشـوع في اغتـرار لما سعـى بـالسـادة الأقمـار
بـالأمـراء القـادة الأبـرار ولاةِ عهـد السيـد المختـار
وبـالموالي وبنـي الأحـرار رمـى بـه في مـوحش القفـار
بساحل البحرين للصُغار

ولما جاءت سنة (سبع وأربعين ومائتين) أراد المتوكل قبض ضياع (وصيف) بأصبهان والجبل، بعدما ظهر له من غشّه. وعرف (وصيف) بالأمر قبل تنفيذه؛ فنظم مؤامرة؛ لم يعرف بها المتوكل؛ إلاّ أنه أراد استباق الأحداث بقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم؛ بعد أن استبدوا بأمور الناس؛ وتحكموا بأمور المملكة. وفي الوقت المحدد لتنفيذ المؤامرة. دخل على المتوكل نفر من حرسه الأتراك: بغلون التركي وباغر وموسى بن بغا وهارون بن صوارتكين وبغا الشرابي. فقتلوه. وخرجوا الى ابنه (المنتصر) وسلموا عليه بالخلافة؛ ولما يفارق والده الحياة. ورددت الصحراء أصداء كلمات شاعر:

يـا عين ويلـك فـاهملي بـالـدمـع سحّـاً واسبلي
دلـت على قـرب القيـا مـة قتلـة المتـوكـل

وقال شاعر :

يـــا نـــائـــم العين في جثمان يقظـــان ... مـــا بـــال عينـــك لا تبكـــي بتهتـــان
أما رأيـــت صروف الدهـــر مـــا فعلـــت ... بـــالهاشمـــي وبـــالفتـــح بـــن خـــاقـــان
وســـوف يتبعهـــم قـــوم لهم غـــدروا ... حتى يصيروا كـــأمس الذاهـــب الفـــاني

لقد جاءت الخلافة للمتوكل على غير إرادة منه؛ وعلى غير عمل لها - وفي ذلك قال شاعر :

كـــانـــت خلافـــة جعفـــر كنبـــوة ... جـــاءت بلا طلـــب ولا بتنحُّـــلِ
وهـــب الإلـــه لـــه الخلافـــة مثـــل مـــا ... وهـــب النبـــوة للنبي المرســـل

وأمضى المتوكل حياته مجاهداً في سبيل الله، محاولاً جهد استطاعته وأكثر من استطاعته لتصحيح أوضاع الدولة؛ وتحقيق التوازن بين مراكز القوى؛ فغلبه الأتراك - وصيف وبغا - وقتلاه؛ وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر. ولم يطل بخليفته (المنتصر) الأمر. فقد مات بعد ستة أشهر من مصرع أبيه. وتدخل - وصيف وبغا - لتعيين خلفه (أحمد بن محمد بن المعتصم) وصار أمر خلع الخلفاء وتنصيبهم؛ وقتلهم أو إبقائهم بأيدي قادة الجند. وبدأت سلطة الدولة بالانحلال؛ مما أفسح المجال الرحب أمام ظهور مراكز القوى المتصارعة في كل قطر من أقطار المسلمين.